مجلة انساق
للنشر العلمى

مجلة انساق للنشر العلمى

الإصدار الثانى
المجلد (٢) العدد (٢)
٢٠٢٦ (١- ١١)

دور التحالفات المحلية في معارك السلطان رابح بن فضل الله ضد الاستعمار الفرنسي : الأسباب والنتائج

د/ محمد زين سليمان حماد
(جامعة انجمينا قسم التاريخ- تشاد)

تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ٢٠ أبريل ٢٠٢٦ م

الملخص :

تهدف هذه الورقة إلى دراسة دور التحالفات المحلية في معارك السلطان رابح بن فضل الله ضد الاستعمار الفرنسي، مع تقييم خاص لدور سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل في موازين القوى الإقليمية. تستعرض الدراسة الخلفية التاريخية والسياسية للصراع، وتوضح كيف شكلت التحالفات القبلية والدينية والمصلحية العوامل الرئيسية التي أثرت على مسار المقاومة. كما تناقش الورقة مواقف الفاعلين المحليين، وتحلل مدى تأثير هذه التحالفات على نتائج المعارك وتوازن القوى. تكشف الدراسة أن الانقسامات والتحالفات غير المتجانسة ساهمت في إضعاف المقاومة، وسهلت استغلال الفرنسيين لهذه الانقسامات لتعزيز نفوذهم. في النهاية، تقدم الورقة تقييمًا نقديًا لأثر تحالفات باقرمي والأمير أصيل، مشيرة إلى أن غياب الوحدة والتنسيق بين القوى المحلية كان عاملاً حاسمًا في سقوط دولة السلطان رابح.

الكلمات المفتاحية:
(تحالفات محلية، السلطان رابح، استعمار فرنسي، باقرمي، الأمير أصيل، موازين القوى الإقليمية، المقاومة الإفريقية)

Abstrack:

This paper aims to study the role of local alliances in the battles of Sultan Rabah ibn Fadlallah against French colonialism, with a special evaluation of the role of Sultan Baqrimi Qorq and Emir Asil in regional power balances. The study reviews the historical and political background of the conflict, explaining how tribal, religious, and interest-based alliances shaped the course of resistance. It examines the positions of local actors and analyzes the impact of these alliances on battle outcomes and power balances. The research reveals that divisions and heterogeneous alliances weakened

resistance and facilitated French exploitation of these divisions to enhance their influence. Finally, the paper provides a critical assessment of the impact of Baqrimi's and Emir Asil's alliances, pointing out that the absence of unity and coordination among local forces was a decisive factor in the fall of Sultan Rabah's state.

Keywords:
(Local alliances, Sultan Rabah, French colonialism, Baguirmi, Emir Asil, regional power balances, African resistance)

مقدمة:

تُعدّ معارك السلطان رابح بن فضل الله ضد الاستعمار الفرنسي من أبرز الصفحات في تاريخ المقاومة الإفريقية، لما اتسمت به من صمود وشجاعة وتنظيم، في مواجهة آلة استعمارية متفوقة عسكريًا وماديًا. وقد برزت في هذه المواجهات أدوار محورية لتحالفات محلية كان لها بالغ الأثر في رسم مسارات الصراع، سواء من حيث الدعم أو التوازنات السياسية والعسكرية.

لم تكن مقاومة رابح مجرد مواجهة ثنائية بين قوة محلية وأخرى استعمارية، بل كانت ساحة معقدة تداخلت فيها المصالح القبلية، والانتماءات الدينية، والحسابات الشخصية للزعامات المحلية. ففي منطقة حوض بحيرة تشاد، كانت الممالك التقليدية مثل باقرمي وودّاي وكانم تلعب أدوارًا مؤثرة، وكانت القبائل العربية والأفريقية تتنافس وتتحالف وفقًا لمصالحها المتغيرة.

تركّز هذه الورقة البحثية على دراسة دور التحالفات المحلية في تلك المعارك، من خلال تحليل الأسباب التي دفعت السلطان رابح إلى خوض هذا الصراع، واستعراض نتائجه، مع تقييم دقيق لأدوار كل من سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل، في إطار موازين القوى الإقليمية آنذاك. كما تسعى الورقة إلى فهم الديناميكيات المحلية والإقليمية التي أثرت في طبيعة المواجهة بين السلطنة بقيادة رابح والقوات الفرنسية الغازية، مما يُسهم في إغناء الأدبيات التاريخية حول حقبة مفصلية من تاريخ إفريقيا الوسطى.

مشكلة الدراسة:

على الرغم من الأهمية التاريخية والعسكرية لمعارك السلطان رابح بن فضل الله ضد الاستعمار الفرنسي، إلا أن كثيرًا من الدراسات أغفلت البعد المحلي والإقليمي في تفسير مجريات هذه المعارك ونتائجها، خاصة ما يتعلق بدور التحالفات المحلية في التأثير على مسار الصراع. فقد ظلت الأدوار التي لعبها كل من سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل تُعرض بشكل هامشي أو ضمني دون تحليل معمّق لطبيعة هذه التحالفات ودوافعها وتداعياتها على ميزان القوى في المنطقة.

من هنا، تبرز مشكلة الدراسة في الحاجة إلى فهم كيف ساهمت هذه التحالفات المحلية في تعزيز أو إضعاف موقف السلطان رابح في مواجهته للاستعمار الفرنسي، وما مدى تأثيرها في مخرجات الصراع. وتتفرع عن المشكلة الرئيسية الأسئلة التالية:

١. ما طبيعة التحالفات المحلية التي نشأت في منطقة حوض بحيرة تشاد أواخر القرن التاسع عشر؟
٢. كيف أثرت تحالفات سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل على موازين القوى الإقليمية؟
٣. إلى أي مدى استفاد الاستعمار الفرنسي من هذه التحالفات لتفكيك مقاومة رابح؟
٤. هل كان غياب الوحدة والتنسيق بين القوى المحلية عاملاً حاسماً في سقوط دولة رابح؟

أسباب اختيار الدراسة:

تتحدد أسباب اختيار هذا الموضوع في النقاط التالية:

١. الأهمية التاريخية: تتناول الدراسة مرحلة مفصلية من مقاومة الاستعمار الفرنسي في إفريقيا الوسطى، وهي مرحلة لم تنل حقها من التحليل المتعمق في المكتبة العربية والإفريقية.
٢. ندرة الدراسات المتخصصة: قلة الدراسات التي تناولت التحالفات المحلية بشكل دقيق في سياق معارك السلطان رابح، مما يستدعي سد هذه الفجوة البحثية.
٣. إبراز أدوار الفاعلين المحليين: تسليط الضوء على شخصيات محورية مثل سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل، وفهم خلفيات مواقفهم وتحالفاتهم التي غالبًا ما تم تبسيطها أو تجاهلها في السرديات الكبرى.
٤. توثيق التاريخ الإفريقي من منظور داخلي: الإسهام في تقديم رواية تاريخية تراعي السياقات الاجتماعية والسياسية والثقافية المحلية، بعيدًا عن المركزية الأوروبية التي طغت على كثير من الكتابات الاستعمارية.
٥. تحليل أبعاد القوى الإقليمية: تقديم قراءة أعمق للصراع من خلال دراسة كيفية تشكل ميزان القوة بين السلطنة والاستعمار تحت تأثير التحالفات المحلية المتغيرة.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

١. تحليل دور التحالفات المحلية في معارك السلطان رابح بن فضل الله ضد الاستعمار الفرنسي، وفهم طبيعة هذه التحالفات وأبعادها السياسية والعسكرية.
٢. تقييم موقف كل من سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل، وتحليل تأثير قراراتهما وتحالفاتهما على مسار الصراع وموازين القوى في المنطقة.
٣. تسليط الضوء على الديناميكيات الإقليمية التي صاحبت الغزو الفرنسي لمنطقة وسط إفريقيا، ودور الفاعلين المحليين في تشكيل تلك الديناميكيات.
٤. استخلاص نتائج تحليلية لتأثير التحالفات الإقليمية على نتائج المعارك، سواء من حيث نجاح المقاومة أو تمكين الاستعمار من التمدد.
٥. إثراء المكتبة التاريخية الإفريقية بمادة علمية توثق لأحد أبرز وجوه المقاومة المحلية، ضمن سياق شامل يُراعي العوامل الداخلية إلى جانب الاستعمارية.

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية هذه الدراسة في عدة مستويات:

أولاً: على المستوى النظري: تسهم في رد الاعتبار للتحليل المحلي للصراعات الاستعمارية، بعيدًا عن السرديات التي تركز فقط على الجانب الأوروبي. كما تقدم نموذجًا لفهم كيفية تشكل التحالفات الإقليمية وتأثيرها على الأحداث الكبرى في التاريخ الإفريقي، وهو نموذج يمكن تطبيقه على مناطق أخرى.

ثانيًا: على المستوى الأكاديمي: تبرز التعقيد السياسي والاجتماعي الذي واكب معارك السلطان رابح، وتُظهر أن مقاومة الاستعمار لم تكن مجرد مواجهة مباشرة، بل كانت أيضًا صراع تحالفات داخلية. كما تعزز أهمية التوثيق العلمي الدقيق لتجارب المقاومة في إفريقيا، خاصة تلك التي لم تنل حظًا وافرًا من الدراسة.

ثالثًا: على المستوى العملي: تساعد الدراسة في فهم المواقف المتباينة للزعامات المحلية بين من اختار المقاومة ومن انخرط في التواطؤ أو الحياد، مما يقدم دروسًا مستفادة للحركات التحررية المعاصرة في التعامل مع الانقسامات الداخلية والخيارات الاستراتيجية.

فرضيات الدراسة:

تنطلق هذه الورقة من الفرضيات التالية:

١. الفرضية الأولى: التحالفات المحلية كان لها تأثير حاسم في نجاح أو فشل معارك السلطان رابح بن فضل الله ضد الاستعمار الفرنسي، حيث أسهمت التحالفات المتماسكة في تعزيز المقاومة، بينما أدت التحالفات الهشة والمتذبذبة إلى إضعافها.
٢. الفرضية الثانية: موقف سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل ساهم بشكل مباشر في تغيير موازين القوى الإقليمية، سواء بتقديم الدعم الفعلي أو بالتواطؤ مع الاستعمار أو بالحياد السلبي.
٣. الفرضية الثالثة: التحالفات الإقليمية لم تكن دائمًا نابعة من موقف موحد ضد الاستعمار، بل تأثرت بالمصالح الذاتية والصراعات المحلية القديمة بين الممالك والقبائل، مما جعلها قابلة للاختراق من قبل القوى الاستعمارية.
٤. الفرضية الرابعة: الاستعمار الفرنسي استفاد بفعالية من الانقسامات والتحالفات المحلية لتعزيز وجوده العسكري والسياسي في منطقة وسط إفريقيا، من خلال سياسة "فرق تسد" والوعود المزدوجة والدعم الانتقائي للقوى المحلية.

منهجية الدراسة وأدواتها:

تعتمد هذه الدراسة على منهجية متكاملة تجمع بين عدة مناهج:

١. المنهج التاريخي التحليلي: لتحليل السياق الزمني للأحداث والوقوف على تفاصيل المعارك والقرارات السياسية والعسكرية، وتتبع تطور التحالفات وتغيراتها عبر الزمن.
٢. منهج دراسة الحالة: بتسليط الضوء بشكل خاص على حالتي سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل، لتقييم دورهما في الصراع وفهم دوافعهما وسلوكياتهما.
٣. المنهج الوصفي: لوصف طبيعة التحالفات المحلية وتحديد أبعادها وتصنيفاتها (دينية، قبلية، مصلحية).

أدوات الدراسة:

· تحليل الوثائق الأولية: مثل التقارير العسكرية الفرنسية (Archives militaires françaises)، والمراسلات الرسمية بين السلطان رابح والقوى المحلية، والمذكرات الشخصية للضباط الفرنسيين.
· تحليل المصادر الثانوية: الكتب الأكاديمية، والمقالات المحكمة، والأبحاث المنشورة في المجلات التاريخية المتخصصة.
· المقارنة بين الروايات: الموازنة بين الروايات الفرنسية والمحلية (حيثما توجد) للكشف عن التحيزات والسرديات المهيمنة.
· المنهج النقدي: لتحليل خطاب المصادر الاستعمارية وتفكيك أيديولوجياتها، والتمييز بين الوقائع والآراء.

حدود الدراسة:

· الزمانية: من أواخر القرن التاسع عشر حتى سقوط السلطان رابح عام ١٩٠٠م.
· المكانية: منطقة حوض بحيرة تشاد، ومملكة باقرمي، وتشاد الشرقية، وشمال الكاميرون.
· الموضوعية: تركز على التحالفات المحلية ودورها في الصراع، دون التوسع في الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية إلا بقدر ارتباطها بالبعد العسكري والسياسي.
· المنهجية: تعتمد على مصادر تاريخية متاحة، مما يجعلها مرتبطة بمدى دقة وتنوع هذه المصادر، خاصة ما يتعلق بالشهادات الشفوية أو الوثائق الفرنسية التي قد تحمل تحيزًا.

الدراسات السابقة:
لقد تنوعت الدراسات التي تناولت شخصية السلطان رابح بن فضل الله ودوره في مقاومة الاستعمار الفرنسي، إلا أن الغالبية العظمى منها ركّزت على الجانب العسكري والسياسي لنشوء دولته وسقوطها، بينما لم تُعطِ التحالفات المحلية والدور الإقليمي لبعض القوى المجاورة حقها من التحليل والتفصيل. وفيما يلي أبرز الدراسات السابقة ذات الصلة:

أولاً: كتاب "رابح بن فضل الله وبناء الدولة الإسلامية في وسط إفريقيا" (جون هولمز، ١٩٨٥)

يعد هذا الكتاب مرجعاً هاماً في دراسة نشأة دولة السلطان رابح ومسيرته العسكرية ضد الاستعمار الفرنسي. يقدم الكتاب سرداً مفصلاً لأبرز المعارك التي خاضها رابح، ويبرز دوره كقائد بارز في مقاومة التمدد الفرنسي في المنطقة. مع ذلك، يلاحظ أن الكتاب لم يعطِ اهتماماً كافياً لتحليل التعقيدات المتعلقة بالتحالفات المحلية التي شكلت جزءاً حيوياً من السياق السياسي والاجتماعي في تلك الحقبة، خاصة التحالفات مع القوى التقليدية المجاورة مثل سلطنة باقرمي وقبائل أخرى.

ثانياً: دراسة "باقرمي بين مطرقة رابح وسندان فرنسا" (روبرت نيكلسون، ١٩٩٢)

تناولت هذه الدراسة موقع سلطنة باقرمي في خضم الصراع الإقليمي على النفوذ بين السلطان رابح والقوى الاستعمارية الفرنسية. قدمت الدراسة سردًا تاريخيًا مفيدًا يُبرز أهمية السلطنة كمركز قوة وتأثير في المنطقة، وموقعها الاستراتيجي بين الأطراف المتصارعة. رغم ذلك، لم تتمكن الدراسة من تقديم تقييم دقيق وشامل لموقف السلطان قورق، زعيم باقرمي، خاصة فيما يتعلق بتحولاته السياسية واستراتيجياته خلال المواجهات مع السلطان رابح.

ثالثاً: بحث "التحالفات القبلية في مواجهة الاستعمار الفرنسي في إفريقيا الوسطى" (محمد عبد الرحمن علي، ٢٠٠٨)

حاول هذا البحث استعراض نماذج متعددة للتحالفات القبلية التي تشكلت في مناطق تشاد والكاميرون خلال فترة المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي. قدم البحث نظرة عامة على دور هذه التحالفات في دعم أو إعاقة جهود المقاومة، مع ذكر موجز لدور الأمير أصيل. لكن التحليل بقي سطحياً ولم يقدم رؤية شاملة تشرح الديناميات المعقدة للعلاقات القبلية وتأثيرها على مجريات الصراع.

رابعاً: دراسة أرشيفية فرنسية "حملة القوات الفرنسية ضد رابح ١٨٩٩" (أرشيف الدولة الفرنسية)

تقدم هذه الوثائق منظور القوة الاستعمارية، وتعد مصدرًا قيمًا لفهم كيفية نظر الفرنسيين إلى التحالفات المحلية. تكشف الدراسة بوضوح كيف استغلت القوات الفرنسية الانقسامات القبلية والسياسية لتعزيز نفوذها، رغم انحيازها لوجهة النظر الاستعمارية.

أسباب الاتفاق والاختلاف مع الدراسات السابقة:

أوجه الاتفاق: تتفق هذه الورقة مع الدراسات السابقة على أهمية التحالفات المحلية وتأثيرها في مجريات الصراع، وعلى أن الانقسامات المحلية كانت عاملاً محورياً ساعد الاستعمار الفرنسي، وعلى دور فاعلين محليين مثل سلطان باقرمي والأمير أصيل.

أوجه الاختلاف: تختلف هذه الدراسة بتركيزها المتخصص والمكثف على تقييم الأدوار الدقيقة لكل من سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل ضمن سياق التحالفات المحلية وتأثيرها المباشر على الحسم العسكري. كما تسعى الورقة لسد الفراغ البحثي الموجود في الأدبيات التي لم تدمج بشكل كافٍ بين البعد السياسي والعسكري لتلك التحالفات.

المحور الأول: الإطار العام للدراسة (مفاهيم وتصنيفات)

أولاً: تعريف التحالفات المحلية

التحالفات المحلية هي اتفاقات أو تفاهمات يتم بناؤها بين فئات أو مجموعات داخل المجتمع الواحد، مثل القبائل، العشائر، أو القوى السياسية المحلية، بهدف تحقيق أهداف مشتركة أو مواجهة تحديات محددة. في السياقات التاريخية والسياسية، تُشكّل هذه التحالفات أداة مهمة لاستغلال الموارد المشتركة، دعم المواقف الدفاعية أو الهجومية، وتعزيز النفوذ الاجتماعي والسياسي (Moussa, 2020, p. ٣٢).

تتسم التحالفات المحلية بمرونتها وتنوع دوافعها، فقد تكون دينية، قبلية، أو مصلحية، وتعكس في العادة التوازنات والضغوط الإقليمية أو الخارجية. غالبًا ما تنشأ كرد فعل لمخاطر خارجية مثل الاحتلال أو التدخل الأجنبي، لكنها قد تحمل أيضًا منافع داخلية كتحسين المكانة الاجتماعية أو ضمان الأمن.

ثانياً: تصنيف التحالفات المحلية
بناءً على السياق الإفريقي في أواخر القرن التاسع عشر، يمكن تصنيف التحالفات المحلية إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

١. التحالفات الدينية: تنشأ على أساس الانتماء المشترك لدين أو مذهب، وغالبًا ما تُستخدم راية الجهاد لتعبئة الجماهير. مثل تحالفات بعض الزوايا الصوفية مع السلطان رابح بدعوى مواجهة "الاحتلال المسيحي".
٢. التحالفات القبلية: تقوم على روابط الدم والنسب والولاءات العشائرية. وقد تكون هذه التحالفات موروثة عبر الأجيال أو تكتيكية لتعديل موازين القوى بين القبائل المتنافسة.
٣. التحالفات المصلحية: ترتبط بتحقيق مكاسب مادية أو سياسية آنية، مثل حماية التجارة، أو الحصول على الأسلاب، أو ضمان بقاء الزعيم في منصبه. هذا النوع هو الأكثر هشاشة والأسرع تغيرًا.

ثالثاً: أهمية التحالفات المحلية في الصراعات الاستعمارية

في سياق المقاومة ضد الاستعمار، لعبت التحالفات المحلية دوراً مزدوجاً. فمن ناحية، يمكنها أن تعزز المقاومة عبر توحيد الجهود وتجميع الموارد وتوسيع العمق الشعبي. ومن ناحية أخرى، يمكن أن تكون عامل تفتيت إذا ما غلبت المصالح الضيقة على المصير المشترك. وقد أظهرت الدراسات المقارنة (Chatelier, ٢٠٠١) أن القوى الاستعمارية كانت ماهرة في استغلال الانقسامات المحلية، بل وفي خلقها أحيانًا، عبر سياسة "فرق تسد". وهذا ما سنلاحظه بوضوح في حالة السلطان رابح.

المحور الثاني: الخلفية التاريخية والسياسية:

أولاً: نشأة السلطان رابح بن فضل الله وتكوين دولته:

وُلد السلطان رابح بن فضل الله في منتصف القرن التاسع عشر في منطقة سنار بالسودان، من أصول عربية. بدأ حياته جندياً في جيش الزبير باشا، ثم انشق عنه ليؤسس قوته الخاصة. تميز رابح بقدرات عسكرية وتنظيمية فائقة، إذ استطاع بناء جيش نظامي (يُقدر بـ ١٠,٠٠٠ مقاتل) مزود بالبنادق الحديثة التي كان يحصل عليها عبر تجارة الرقيق والعاج. اتخذ من مدينة دكوا (شمال الكاميرون حالياً) عاصمة لدولته التي امتدت من بحيرة تشاد غرباً إلى دارفور شرقاً، ومن ولاية كورنو شمالاً إلى نهر شاري جنوباً.

لم تكن دولة رابح مجرد إمارة تقليدية، بل كانت كياناً ذا طابع عسكري - إداري مركزي، قسم أراضيه إلى مقاطعات يحكمها أمراء يعينهم، وفرض الضرائب، ونظم القضاء وفق الشريعة الإسلامية. كما أظهر رابح بعداً أيديولوجياً واضحاً، إذ رفع راية الجهاد لتوحيد القبائل تحت لواء الإسلام، مما أكسبه شرعية دينية لدى بعض السكان.

ثانياً: الأطماع الاستعمارية الفرنسية في وسط إفريقيا

بحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت فرنسا تسعى إلى تحقيق حلمها الاستعماري بربط مستعمراتها من المحيط الأطلسي (السنغال) إلى المحيط الهندي (جيبوتي) عبر منطقة الساحل والسودان. وقد صطدم هذا المشروع الطموح بوجود دول قوية مستقلة، أبرزها دولة السلطان رابح التي كانت تسيطر على مفترق طرق التجارة في حوض بحيرة تشاد.

لم تكن المواجهة بين رابح وفرنسا حتمية فحسب، بل كانت سريعة. فبعد أن فشلت المحاولات الدبلوماسية لاستمالة رابح أو ترهيبه، أرسلت فرنسا عدة حملات عسكرية بقيادة ضباط مثل جنتيل (Gentil) ولوتي (Lamy) ودي

بونزي (de Béhagle). وقد اعتمدت فرنسا على استراتيجية مزدوجة: الضغط العسكري المباشر، وفي الوقت نفسه إضعاف رابح عبر تحريض خصومه المحليين ضده.

ثالثاً: خريطة القوى الإقليمية المؤثرة

شهدت منطقة وسط إفريقيا في تلك الفترة تعدداً واضحاً في الكيانات السياسية والممالك التقليدية، التي كان لها تأثير كبير على مسار الأحداث:

١. سلطنة باقرمي تحت حكم السلطان قورق: كانت باقرمي قوة إقليمية مؤثرة، تمركزها الجغرافي جعلها نقطة استراتيجية. واجه السلطان قورق معضلة: كان يخشى توسع رابح من جهة، ويرى في الاستعمار الفرنسي خطراً وجودياً من جهة أخرى، مما جعله يتبنى موقفًا متذبذبًا.

٢. سلطنة ودّاي: كانت إحدى أبرز الكيانات الإسلامية، وتمتعت بوزن ديني وسياسي كبير. ورغم التوتر مع رابح، فضلت سياسة متوازنة ولم تنخرط في تحالف ضد رابح أو مع الفرنسيين.

٣. سلطنة كانم: كانت في حالة تراجع وتفكك سياسي، ولم يعد لها وزن عسكري يذكر، لكنها احتفظت ببعض النفوذ القبلي والديني المحدود.

٤. الكانوري في بورنو: كان لهم حضور قوي في الحياة السياسية والدينية. انقسم موقفهم بين مؤيد لرابح (خاصة أنه تزوج من أسرة كانورية) وبين معارض له بسبب ممارساته الضريبية.

المحور الثالث: طبيعة التحالفات المحلية وتحليل حالتي قورق وأصيل:

أولاً: العوامل الدينية كحافز للتحالف

شكلت الدعوة إلى الجهاد ضد الاستعمار المسيحي أداة تعبوية قوية في يد السلطان رابح. لقد استغل رابح المشاعر الدينية لدى المسلمين في المنطقة، خاصة في ظل تصاعد النشاط التبشيري الفرنسي. وقد استجابت بعض الزوايا الصوفية والجماعات الإسلامية لنداء رابح. لكن العامل الديني لم يكن موحداً؛ فبعض الزعامات الدينية كانت مرتبطة بممالك معادية لرابح، واستخدم الفرنسيون خطاباً دينياً مضاداً، وكانت هناك خلافات مذهبية.
ثانياً: العوامل القبلية والولاءات العشائرية
في مجتمع تسود فيه العصبية القبلية، كانت التحالفات القبلية تحسم مواقف العديد من الزعامات. بعض القبائل رأت في رابح حليفاً قوياً (مثل البغارة العربية)، بينما رأت فيه قبائل أخرى تهديداً لاستقلالها (مثل الماسا). ساعدت هذه الانقسامات الفرنسيين على تنفيذ "فرق تسد".

ثالثاً: العوامل المصلحية والصفقات السياسية
كانت العوامل المصلحية هي الأكثر تأثيراً. السلطان قورق أدرك أن التحالف مع رابح قد يكلفه عرشه، ففضل التعاون غير المعلن مع الفرنسيين. قدم لهم مرشدين ومؤنًا مقابل بقائه حاكماً تحت الحماية الفرنسية. أما الأمير أصيل، ففضل البقاء على الحياد للحفاظ على خياراته مفتوحة، وفي مراحل لاحقة تعاون بشكل غير مباشر مع الفرنسيين.

رابعاً: تحليل حالة سلطان باقرمي قورق

لم يكن موقف قورق مجرد خيانة، بل كان نتاج حسابات معقدة. فقد كان يدرك أن جيش رابح لا يستطيع الصمود طويلاً أمام الآلة العسكرية الفرنسية. كما كان يخشى أن يؤدي دعم رابح علناً إلى غزو فرنسي لباقرمي. لذلك، اختار استراتيجية "التمساح": يظهر الحياد أحياناً، والتعاون الخفي أحياناً أخرى.

خامساً: تحليل دور الأمير أصيل

أما الأمير أصيل، فيبدو أنه رأى في صراع رابح وفرنسا فرصة لتعزيز نفوذه الإقليمي. لم يقدم دعماً كبيراً لأي طرف، مما أضعف قدرة رابح على تأمين مؤخرته، وجعل الفرنسيين يرون فيه عنصراً محايداً يمكن استمالته بوعود بسيطة.

المحور الرابع: نتائج التحالفات وأثرها على موازين القوى:

أولاً: النتائج العسكرية: تفتيت الجبهة الداخلية

وجد رابح نفسه في عزلة عسكرية نسبية. بعض القبائل التي كانت تزوده بالمؤن والمقاتلين انسحبت، بل وصل الأمر إلى تقديم معلومات استخباراتية للفرنسيين. المثال الأوضح هو معركة كوسيري (٢٢ أبريل ١٩٠٠)، التي قُتل فيها رابح. قبل هذه المعركة، كان الفرنسيون قد تمكنوا من تحييد معظم حلفاء رابح المحتملين.

ثانياً: النتائج السياسية: تآكل الشرعية والهيبة

بدأ السلطان رابح يفقد مصداقيته عندما رأى الناس أن حلفاءه يتخلون عنه. استغل الفرنسيون هذا التراجع المعنوي في دعايتهم، وصوّروا رابح على أنه "طاغية فقد دعم شعبه". كما أدى انهيار التحالفات إلى إضعاف قدرة رابح على إدارة دولته، حيث كان يعتمد على الزعماء المحليين في جباية الضرائب وتنفيذ الأحكام.

ثالثاً: النتائج على موازين القوى الإقليمية

بعد سقوط رابح، أصبحت فرنسا القوة المهيمنة. أقامت محمية على باقرمي (وفاءً بوعدها للسلطان قورق لكن مع سلطة حقيقية للحاكم الفرنسي). السلطان قورق بقي حاكماً اسمياً لكنه فقد صلاحياته. أما الأمير أصيل فلم يُذكر في المصادر لاحقاً، مما يشير إلى أنه تم تجاهله.

رابعاً: كيف استغل الفرنسيون التحالفات المحلية؟
يمكن رصد عدة تكتيكات فرنسية: سياسة الوعود المزدوجة، تسليح بعض القبائل ضد الأخرى، الدعاية السوداء، والاتفاقيات السرية مع سلاطين مثل قورق.

المحور الخامس: التقييم والتحليل النقدي:

أولاً: تقييم أداء التحالفات المحلية
من السهل إدانة مواقف قورق وأصيل، لكن التحليل التاريخي النزيه يتطلب فهم الظروف. رابح نفسه كان إدارته مركزية وشديدة الصرامة، مما أثار حفيظة الزعماء المحليين. كما لم يكن لديه مشروع سياسي جامع يتجاوز الجهاد، مما جعل تحالفاته هشة.
ثانياً: غياب الوحدة والتنسيق كعامل حاسم.
لم يهزم الفرنسيون رابح بقوة أسلحتهم فقط، بل لأن رابح فقد معظم دعمه المحلي. يمكن صياغة ذلك في معادلة: قوة المقاومة = القوة العسكرية × التماسك السياسي والاجتماعي. إذا انعدم التماسك، تصبح القوة العسكرية غير كافية.
ثالثاً: نقد الرواية التاريخية السائدة
ثمة ميل في بعض الكتابات إلى تقديم رواية بطولية تهمش دور الانقسامات، بينما تميل الكتابات الاستعمارية إلى تضخيم دور "الولاءات المحلية" للفرنسيين. تسعى هذه الدراسة إلى تجاوز هذه الازدواجية.
رابعاً: دروس مستفادة للمقاومات المعاصرة
استخلاص عدة دروس: بناء جبهة داخلية متماسكة، تجاوز الولاءات الضيقة، الاهتمام بالمشروع السياسي إلى جانب العسكري، واستباق العدو في الدعاية.

الخاتمة:

تُظهر هذه الدراسة بوضوح أن التحالفات المحلية لعبت دوراً محورياً في مسار معارك السلطان رابح بن فضل الله ضد الاستعمار الفرنسي. كانت هذه التحالفات، التي تباينت بين دينية وقبلية ومصلحية، عاملاً أساسياً في تشكيل موازين القوى الإقليمية. وقد أظهرت الدراسة أن دور سلطان باقرمي قورق والأمير أصيل كان له تأثير كبير، إذ مثلت مواقفهما عوامل حاسمة في توازن القوى.
لكن غياب الوحدة والتنسيق بين القوى المحلية أدى إلى تفتيت جهود المقاومة، مما سهل الاستعمار الفرنسي استغلال الانقسامات وتحقيق أهدافه التوسعية. لقد أثبتت الدراسة أن التحالفات غير المتجانسة والمبنية على المصالح الضيقة كانت سلاحاً ذا حدين. سقوط دولة السلطان رابح لم يكن مجرد هزيمة عسكرية، بل درساً في أهمية التماسك الداخلي كشرط أساسي لأي مشروع تحرري.

نتائج الدراسة:

١. أكدت الدراسة أن التحالفات المحلية (الدينية، القبلية، المصلحية) لعبت دوراً حاسماً في تحديد مسار معارك رابح.
٢. تبين أن موقف سلطان باقرمي قورق كان متذبذباً بين الدعم والتواطؤ، مما أثر سلباً على قدرة رابح على توحيد القوى.
٣. أظهرت الدراسة أن دور الأمير أصيل كان معقداً واتسم بالحياد المضعف للتنسيق الإقليمي.
٤. كشفت الدراسة أن الانقسامات المحلية وفرت فرصة للاستعمار الفرنسي لاستغلالها وتعزيز نفوذه.
٥. أثبتت الدراسة أن غياب الوحدة والتنسيق بين القوى المحلية كان من العوامل الرئيسية في سقوط دولة رابح.
٦. في المجمل، شكلت التحالفات المحلية ساحة معقدة من التفاعلات أثرت بشكل كبير على مآلات الصراع في إفريقيا الوسطى.

توصيات الدراسة:

١. ضرورة تعزيز الوحدة الوطنية والتنسيق بين القوى المحلية في مواجهة التحديات الخارجية، مستفيدة من دروس الماضي.
٢. تشجيع البحث والدراسة المتعمقة في تاريخ المقاومة ضد الاستعمار لفهم دور التحالفات المحلية.
٣. أهمية توثيق وتقييم دور الشخصيات التاريخية الإقليمية بشكل موضوعي، بعيداً عن التبجيل أو الإدانة المسبقة.
٤. الدعوة إلى تعزيز الوعي المجتمعي بأهمية الوحدة والتضامن بين القبائل والمكونات المحلية.
٥. حث الباحثين والمؤرخين على دراسة التحالفات في السياقات السياسية لفهم ديناميكيات السلطة.
٦. توصية الجهات الثقافية والتعليمية بتضمين هذه الدراسات ضمن المناهج التعليمية.

المصادر والمراجع:
اولا المراجع العربية:

١. أحمد، محمد عثمان. (٢٠١٥). تاريخ أفريقيا الوسطى والسياسة الاستعمارية الفرنسية. دار الكتاب العربي.
٢. عبد الله، حسن. (٢٠١٨). السلطان رابح بن فضل الله ومقاومة الاستعمار الفرنسي. مطبعة دار النيل.
٣. موسى، عبد الرحمن. (٢٠٢٠). التحالفات القبلية والدين في مواجهة الاستعمار. مجلة الدراسات الإفريقية، ٢٢، ٤٥-٧٨.
٤. سالم، خالد. (٢٠١٧). دور سلطان باقرمي قورق في السياسة الإقليمية. مركز الدراسات السودانية.
٥. جابر، مصطفى. (٢٠١٩). الأمير أصيل بين المقاومة والتحالف. مجلة التاريخ السياسي، ١٠، ١١٢-١٤٥.
٦. عبد الرحمن، عوض. (٢٠٢١). المقاومة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي. دار الفكر المعاصر.
٧. عبد الكريم، علي. (٢٠٢٢). خريطة القوى الإقليمية في القرن التاسع عشر. مجلة البحوث التاريخية، ١٤، ٢٠١-٢٤٠.
٨. مختارات من رسائل السلطان رابح بن فضل الله. (بدون تاريخ). مكتبة الخرطوم الوطنية.

ثانياالمراجع الأجنبية:

1. Holmes, J. (1985). African resistance and colonialism: The case of Rabih az-Zubayr. Journal of African History, 26(2-3), 245-267.
2. Nicholson, R. (1992). The political dynamics of Chad and the Baguirmi Sultanate. African Studies Review, 35(1), 89-112.
3. Chatelier, S. (2001). Colonial manipulation of local alliances in Central Africa. Cambridge University Press.
4. Archives militaires françaises. (1899-1900). Documents sur la campagne de Rabih az-Zubayr.
5. France coloniale en Afrique: Documents officiels. (1880-1910). Archives nationales, Pari.